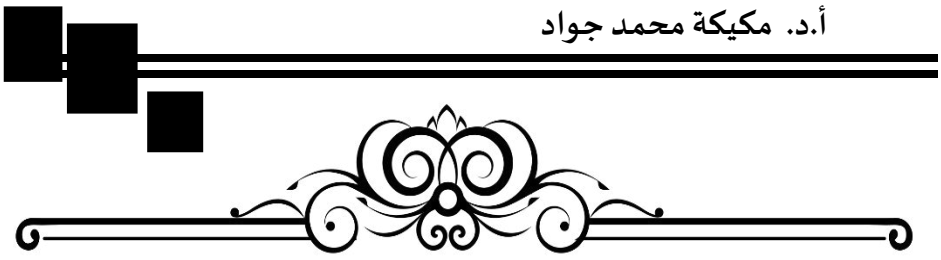

نقد المركزية ورهانات التحول في الخطاب النقدي المغاربي المعاصر
أ.د. مكيكة محمد جواد

يأتي الحديث عن الخطاب النقدي المغاربي المعاصر بشكل عام، وخطاب المابعديات بشكل خاص، في سياق كم من التحولات الفكرية والثقافية التي باتت تشهدها الساحة النقدية اليوم، لا سيما في إطار الصراع الإيديولوجي والمعرفي بين التراث والحداثة، ومعادلة التوازن بينهما، والتي عدّها البعض بعيدة التحقق، وهي رابطة ووشيجة كانت ولازالت تمثل رحى هذا التحول والتجديد، بل لا تكون مبالغا إذا قلنا أنّها تغدي كل جديد، وبغض النظر عن نتائج هذا الصراع وما آلت إليه مخرجاته من انقسامات وتفككات، إلا أنّها معادلة شئنا أم أبينا لاتزال عالقة متجذرة، متأصلة في ذهن المثقف العربي، مهما كان اتجاهه أو أيديولوجيته أو زاوية نظره لهذا الواقع، ذلك أن هذا التأصيل كان سببا وجيها في عديد المرات لتحقيق الانفتاح والتنوع والاختلاف الذي ينشده كل فكر يبتغي التطور والنمـاء، ويبارح في الان ذاته كل ما هو راكد ثابت متحجر، وهي معالم كان لطروحات ما بعد البنيوية دور كبير ووجيه لرسم ملامحها وأبعادها، وحتى الممكن منها.

من هنا تأتي هذه الأوراق لتبحث عن الدور الذي تلعبه معادلة نقد المركزية، كاستراتيجية جديدة بات الخطاب المغاربي المعاصر يعوّل ويراهن عليها في الآن ذاته، كونه واحدا من أهم المسالك والمخرجات التي تضمن لهذا الخطاب التحوّل والتجديد، وذلك وفق رؤية ومساءلة جديدتين للنقد والفكر بشكل عام، مساءلة ترقى لتؤسس لثقافة جديدة في استنطاق الكائن والممكن في هذا النقد على حدّ سواء، وهذا انطلاقا من وضع لبنة جديدة

تصحيحية، تسعى لأن تقدّم الهامش كثقافة ومعادلة بديلتين، تضع مركزية الهامش بديلا لمركزية المركز.

إنّه تحوّل يسعى ليقدّم روحا ودفقا جديدين في الخطاب النقدي المغاربي المعاصر، وهو دفق يركز على ضرورة التجاوز بمنطق الامتداد، وليس تجاوزا بمنطق الإلغاء والرفض، تجاوز يؤسس لقراءة جديدة لهذا الهامش المتغافل عنه، من خلال محاولة رصد ملامحه وسيروراته وكذا تمظهراته، وانعكاسات هذا الانتقال على صعيد قراءة النصوص الأدبية، وذلك في ضوء لغة البنية ومنطق الضياع ولذّة الخرق والانتهاك.

1. غبن المركزية:

قبل أن نخوض في الحديث عن نقد المركزية، وما تبعه من تحولات و تفجرات على الصعيد النقدي والنصي بشكل خاص، نقدم لمحة مختصرة عن عبث المركزية أو ثقافة المركز، وما كان لها من أثر سلبي على الفكر الغربي، ووطأته على النقد والأدب بشكل عام، لقد جاءت المركزية لتؤسس لميتافيزيقا الحضور وفكرة الثابت، وثقافة المثال والنموذج، ولمعيارية الأصل والداخل، حتى باتت كل هذه التمظهرات والأشكال، صورة واحدة للمركز والفكر الغربي والفلسفة المعاصرة، اللتان اعتبرتا أنّ هذا ما يجب أن يكون عليه النقد والأدب، وهي ملامح لا تعدو أن تكون سوى انعكاس صارخ لثقافة الواحد والقطعي والثابت، الذي إليه يرجع كل فكر.

لقد باتت المركزية مرضا ينخر في الفكر الغربي،داعيا إياه إلى عدم الخروج عن الأصل والذات، بل يجب الالتفاف حولهما، إذ على هذا النحو يتحقق الولاء للميتافيزيقا، ميتافيزيقا العقل والصوت معا، من هنا ازدادت محاذير المركز ومغالطاته، كونه ليس فقط سيرا على خطى كل ثابت وأصلي، بل وكل ما هو متجانس و منسجم وقصدي، من هنا وكما يتضح لاحقا بمزيد من التفصيل نجد " أن الناقد التفكيكي لا يبحث عن الانسجام، بل من مبادئه غياب هذا الانسجام الكلّي"[1].

1- مجموعة من المؤلفين، نظريات القراءة من البنيوية إلى جمالية التلقي، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، ط، 01، 2003، ص 96.

وبهذا يتضح كيف أن المركزية الغربية تعوّل وتراهن بقوة على هذا المنطق، منطق المتآلف والمنسجم، وهذا ما ينقلب سلبا على دلالة النصوص التي لا تكاد تخرج عن هذا الثابت والقطعي من المعاني، وعلى قراءة النصوص تبعا، إذ ليس هناك مكان للاختلاف وللقراءات المتعددة والتأويلات المتصارعة، وإنّما الأمور كلّها تسير وفق قوانين ثابتة وجامدة لا تقبل التغيير أو التجديد، بل إنّها كلها تصّب في هذا الأصل في الذات أو في الجذور، في هذا الصوت الذي لطالما كان صوتا سلطويا مكمما لجميع الأصوات، فلا صوت يعلو على صوت الأصل والداخل.

وبهذا، فإن عبث المركز وغبنه يتجسد في الرغبة الملحة للانتقام" ... من العقل من الحضور من الوجود من منطق تطابق الوعي مع مقولاته ومن هيغل أيضا..."[1]، لقد أكدت هذه المركزية على مركزية الفكر الذي لا يقبلّ التقويض، وعلى سلطة العقل وسطوة المحور، وبطش منطق التطابق والنموذج، كما ساهمت هذه المركزية في تكريس رؤية تجعل الأشياء والعوالم كلا مستقلا بذاته، وما استقلالية النص التي وضعته النظرية البنيوية سوى دليل على هذه النمطية والشرخ بين الأشياء، حتى غدت الهوّة بين الأنا والآخر، والأنا والوجود، والأنا والتاريخ ،منطقا لا تستغني عنه، فلا مكان في المركز سوى للعقل الخالص ومركزية الإنسان والذات في تعاليها المطلق، ليبقى الوجود والحقيقة خطين أحمرين لا مجال لنقدهما أو تجاوزهما، ذلك أنهما تمثيل وتجسيد حي لميتافيزيقا الحضور، التي تأبى الاختراق والمساءلة والحفر والخلخلة.

إن العمل بثقافة المركز هو في الواقع عمل بمنطق الوثوقية والقطعية، وإعلاء لقيم المسلمات والبديهيات التي لا تقبل النقض والهدم و التشكيك، فالنص عالم متعلّق بذاته كما ذهبت إليه النسقية، أما الصوت فلا مكان لتجاوزه، وما الكتابة في مقابله سوى هامش لا اعتبار له، فكلّ هذا هو في الواقع تلاحم لشبكة تمثل هوية خاضعة لزمانية ومكانية محددتين، تجعل النصوص الأدبية في الأخير و للأسف خاضعة للغة التصنيف، والقراءة ملزمة بقصد محدد ومعين لا يتجاوز حدود البحث عن الحقيقة للوصول إلى المعنى، وأي

1- عادل عبد الله، التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، دار الحصاد للنشر والتوزيع سورية، ط 01، 2000، ص17.

معنى، إنّما هو المعنى الحاضر والثابت الذي لا يحصل فيه تصدع ولا صراع، كما سنّته التقاليد الفلسفية القديمة على يد سقراط.

لذا فقد تأكد عبث المركزية من جهة كونها - بناء على ما سبق- عنف منظم يمارس على الفكر الإنساني، فالتمسك بمنطق الثابت عنف، والأحادية عنف، والقول بالبديهي والمسلم عنف، والتقوقع على مركزية الذات والأصل عنف، "كتب رولان بارت ذات مرة أن الصدق الحق هو أن تقول طبيعي أن تعتقد هذا، هذا أمر بديهي البداهة عنف، إنّها تقيدك ولا تترك الاختيار، لذا جاء ديكارت ليربط البداهة بمفهوم الوحدة بالبساطة والشك بالتعدد والكثرة... ،الشك حيرة واختبار وحرية، أما البداهة فعنف وجبر واستعباد، بهذا المعنى فإن التفكير الدوغمائي والنزعات الوثوقية لا تكون عنيفة بما يتولد عنها من أعمال وبما يصدر عنها من أفعال، وإنما بما هي تسبح في عالم الحقائق والبداهات"[1].

لقد أكّدت المركزية الغربية على هذا العنف الممارس ضد الفكر، واضعة أدوات وخالقة استراتيجيات لذلك، إذ تحوّل البديهي إلى مبدأ ثابت، ومثله المسلم والطبيعي الذي لا يقبل النقض ولا الخلاف، ليترتب على ذلك كمّ من المغالطات لعل أهمها مفهوم الوحدة والبساطة، فلا مكان إلا للواحد الثابت المنغلق على ذاته، فليس للناقد أمام هذا الفكر إلا الاستسلام لهذا العنف والإذعان والانقياد لهذه الحقيقة المطلقة المتحجرة.

ثم " إنّ العنف هنا ينصب على ذاته قبل أن ينصب على غيره، فلوثوقي يسدّ أمامه الأبواب قبل أن يسدّها أمام غيره، فيتوهم أنّه يملك الحقيقة الحقّة ناسيا أنّه مملوك لها، وأن الحقيقة مهما كانت لا يمكن أن تكون إلا كشفا لأوهام وتصحيحا لأخطاء، وأنّه لابدّ لها بالتالي من أن تمرّ عبر دروب الشك والانتقاد بهذا المعنى، فالفكر الذي يجرؤ على الانتقاد فكر لا يقف عند البداهات، فيتحرر بذلك من ممارسة العنف على نفسه أولا وغيره فيما بعد"[2].

ليست الوثوفية سوى مذهب من مذاهب المركزية الهدّامة لكل فكر يسعى نحو التجديد والتطور، لقد أوقعت هذه المركزية مفهوم الحقيقة في كثير من المحاذير، وذلك

1- عبد السلام بن عبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال للنشر والتوزيع المغرب، ط 02، 2008، ص61.
2- المرجع نفسه، ص62.

كونها جعلت الناقد المتفحص يعتقد ويتوهم أنّه يملك هذه الحقيقة، في حين أنه نسيّ أنها من تملكه هذا من جهة، ومن جهة أخرى نسي أن الحقيقة الحقّة ماهي في الواقع سوى نسق لأوهام الحقيقة بمعناها السطحي والساذج، وتصحيح لأخطاء كنّا نعتقد للأسف أنّها سلفا لا تقبل التصحيح ولا النقد، فهي من المسلمات ومن لغات العنف الممارس على الفكر الإنساني كما ذكرنا سابقا، إلا أن هذه الخلخلة وهذا التحول والنخر في صميم المفهوم الأول، والحفر في أساسياته لا يتحقق إلا بدروب الشك ومسارات التحيين ومسالك النقد، وحرية المساءلة.

لقد أصابت هذه المركزية وما تحمله من مظاهر وما ينجرّ عنها من تبعات الفكر البشري بالعقم، فجعلته كالخشب المسنّدة، أجوفا ومفرغا لا يقوى على النقد، ولا يعرف لهذا الأخير مسارا أو طريقا، فكر استهلاكي مكبّل احتوته البداهات وأحاط به المنطق الثابت من كل جانب، وأصبح يمارس عنفا على ذاته من دون أن يسعى لإيجاد فضاء خاص به، لقد حوّلت ثقافة المركز المبنية على ميتافيزيقا التصور كيانات إلى بنيات مستقلة بذاتها، فالعالم بنية والتاريخ بنية والذات بنية، ولا مجال ضمن هذا المنطق من خلخلة هذه البنيات، ذلك أن أي خلخلة لها، هو في الواقع خلخلة للمركزية ذاتها، وعلى هذا ندرك أن المركزية في أصلها كانت سدّا لكل الطرق والمنافذ، التي تجعلنا نعيد النظر في مفهوم النقد عموما ومساءلة الفكر خصوصا، حتى أصيب هذا المفهوم "بنوع من التصلب والتحجر حتى عند أكثر الفلسفات ثورية وحيوية، وانتعاشا لمفهوم السلب، وإعادة النظر في مفهوم التناقض، وإثباتا لقصور الجدل الهيغلي"[1].

هذا التحجّر والتصلّب الذي جعلنا نفوّت على أنفسنا الكثير من محطّات التجديد وفرص الخلخلة والاهتزاز في الخطاب النقدي المغاربي والعربي بشكل عام، كل هذا فقط للحفاظ على قداسة هذه المركزية وحدودها وحظوتها، التي جمعت بين السيادة والسلطة، فلا مجال للانفصال والقطيعة.

1- عبد السلام بن عبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين ، ص 71.

2. **الاختلاف بديلا:**

3. تأتي مركزية الاختلاف والهامش، كي تكون بديلا لمركزية المركز، وقد تبلور ذلك في الثورة التي أحدثها دريدا، وهو يسعى إلى تقويض المركز وتفكيك ميتافيزيقا الحضور، كونها لم تكن سوى وهم أرخى سدوله لردح طويل من الزمن على الفكر البشري، فنال منه ما نال، عابثا بالدلالات والوجود والتاريخ.

من هنا أقام دريدا تصوراته لتكون نقيضا واتجاها معاكسا لإفرازات المركز وثوابته، وذلك من خلال " تشخيص أمراض الفكر الغربي المتمركز حول ذاته، يقصي الهامش والخارج والمشتق، ويلوذ بالمركز والداخل الأصلي، ثم بناء فكر الاختلاف، عبر مباشرة فكر مختلف مغاير ينأى عن كل مركز، وينفتح على الهامش والخارج والمشتق، بفضل فضيلة الاختلاف ...،فمحاولة دريدا لتقويض ميتافيزيقا الحضور ولكل التقليد الفلسفي الغربي الممتد من سقراط إلى مارتين هاديغر، وأن رغبته في التأسيس لفكر الاختلاف غيّر التفكير في الكتابة في أصّل للكلام، وكهامش يسكن قلب المركز، ما هي إلا محاولة لكسر طوق تلك الازدواجية الميتافيزيقية، التي ظلّت تؤسس الفكر الغربي، والدعوة إلى بنائه من جديد، وفق استراتيجية لا تنظر إلى الهامش باعتباره خارج المركز، بل باعتباره النقطة التي يتخلخل عندها المركز، ويبدأ عندها الاختلاف...

إن اقتران التفكيك بهذه المهمة المزدوجة (الهدم، البناء) يظهر أن التفكيك يحمل في ذاته معنى الاختلاف، فبقدر ماهو هدم لتاريخ الفكر بوصفه تمركزا حول الذات والعقل والصوت، وتاريخا خطيا للمعنى والحقيقة، هو كذلك بناء وإعادة رسم معالم جديدة لفكر كوني ينأى عن كل مركزي،أي عن كلّ ميتافيزيقا"[1] لقد وقف دريدا انطلاقا مما سبق على أهم أمراض الفكر الغربي، مشخصا و مشرحا إياها، مقدما تحصيلا لأهم عثرات ومحاذير هذا الفكر، الممتد من سقراط إلى هايديغر، هذا الفكر الذي أسس للذّات والأصل والمركز والداخل، وجعل كل هذه التصورات بنية لا مناص ولا غنى عنها لميتافيزيقا الحضور، ولحياة وديمومة الفكر الغربي بشكل عام، متقصيا في الآن ذاته كل ما هو خارج ومشتق وهامشي،

1- عمر الناور، استراتيجية التفكيك عند جاك دريدا الهدم والبناء مجلة .. زعدد3/9، 2014م، ص29.

إذ لا فائدة ترجى من هذه المعادلات، كونها ليست سوى معوقات ومنافذ مسدودة لا تخدم الفكر في شيء، ولعل انطلاقة دريدا أو رحلته هذه في إعادة مساءلة هذه المركزية، هي في الواقع منطلقة من مجموعة من العوامل والدوافع، ولعل أهمها هو هذا السؤال الجوهري، ما السبب الذي يجعلنا دوما خاضعين للمعنى والحضور والصوت، ولكل ما هو تقليدي ومثالي؟

من هنا بدأ دريدا ينقب ويحفر في هذه التمظهرات التي تجلت من خلالها هذه المركزية الغربية، حتى باتت من قبيل المقدس الذي لا يمكن انتهاكه ولا اختراقهن مقدما استراتيجية جديدة وبديلا آخر، أساسه الاختلاف والبناء والهدم والكتابة والهامش، والخارج والمشتق، كآليات جديدة يحاور ويسائل بها الفكر الغربي من جديد، ورهانه في كلّ هذا التفكيك والتقويض وتفجير الثابت، ونقد البديهيات ومشاكسة المسلمات.

إنّه وبصفة عامة، يراهن على الخلخلة والتفكيك كسلاح يرسم من خلاله استراتيجية جديدة، ليس فقط في التعامل مع النصوص والمعاني فحسب، بل في التعامل مع الذات والفكر، داعيا إياهما للخروج من سيطرة هذا الطوق الخانق الآسر، وإعادة بناء ذات وفكر جديدين، بمواصفات جديدة أساسها الانفتاح والقبول والإذعان للتفكيك، ليس بكونه مجرد هدم، بل هو في الحقيقة بناء لفكر مختلف ومخالف، إذ يساهم هذا التقويض في استمرارية الحوار وتجديده ونبذ القطعي المنغلق، وبناء على هذا أضحى الهامش ليس مجرد شيء خارج عن الأصل أو المركز، بل هو في الواقع النقطة التي يتخلخل عندها المركز، وينطلق منها الاختلاف وتتصارع فيها التأويلات، تظهر وتتجلى من خلالها سمات ومعالم فكر جديد، كلّه خصب وثراء ونماء، نابذا كل منطق ملغيا لغة السيادة والسلطة.

من هنا تراهن التفكيكية عند دريدا على مفهوم الاختلاف " لا سيما أن الفكر التفكيكي وصف على أنّه فكر نهايات التاريخ ونهايات الفلسفة بمعناها العريق، وكذلك هيمنة مفاهيم قريبة من العدمية والتفكيك واللاثابت واللعب"[1]، ذلك أن الاختلاف يبقى بعيد المنال إلا إذا توسلنا بهذه المفاهيم الجديدة التي تفقد ميتافيزيقا الحضور هويتها

1- حنان حطاب، التفكيك نحو تأسيس للمختلف، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة سطيف 2018، مجلد 15، عدد 27،ص 109.

وتزعزع بناءها، إذ لا مكان سوى للعدمية والتشكيك واللعب والفوضى،" إذ هي إقامة علاقة مع المجهول، لكن لا من أجل الطموح لمعرفته أو من أجل تقريبه...بل من أجل تمثل مجهوليته، إنّه منح الآخر المختلف غير الموجود هوية ما، تمكن من تأمله دونما أي فعل، ومن أي نوع يمكن أن يعقب هذا التأمل"[1]، يقول علي حرب في السياق ذاته" إنّه قدرنا لأن الأنا تنبني أصلا بالعلاقة مع العالم الآخر، والوعي بالذات يمرّ عبر الآخر...وهو شطرنا لأننا لا ننفك ننقسم على أنفسنا فنغاير ذواتنا فتتماهى مع الغير ضربا من المماهات، تنظر في ذواتنا وتكشف بعد من أبعادنا المجهولة"[2].

وعلى هذا، فإن الاختلاف الذي بات نقيضا لهذه المركزية أضحى يمثل اليوم رهان كل انفتاح وتحول وديناميةٍ "فإذا كان السؤال هو النقص عينه أو هو الرغبة عينها في الحصول على الرد، فإن الإجابة التي تكشف تحقيق الرغبة والرضا ومن ثمّ الملل، الذي سرعان ما يعقبها"[3].

لقد أضحى الاختلاف قلبا للموازين ونقدا للأعراف التي غرست في الميتافيزيقا الغربية، فأصبح الاختلاف يحتفل ويحتفي بالسؤال أكثر من الإجابات التي مآلها الملل، ذلك أن السؤال تحوّل الآن إلى منفذ من منافذ المعرفة المطلقة، وفي هذا دليل على أن تصورات دريدا هي ليست مجرد " نقد للقوالب المنطقية الظاهرة للفكر الغربي الموروث، وإنّما في تقويض تجربة " اللوغوس" أو العقل الغربي نفسه في آلياته الأساسية"[4].

وبهذا فإن الاختلاف والهامش والخارجي والمشتق، أصبحت الآن آليات جديدة للكشف عن مزالق وأوهام وأمراض وتصدعات الفكر الغربي، لا سيما في منحاها العلمي الثابت والمتحجّر، لتبدأ لعبة المراوغة والمخادعة والمخاتلة، والالتواء والمداورة التي تزعزع الأصول والمبادئ، وتعد بالنهايات، نهايات الجوهر وبدايات القشور والسطوح والأشكال،

1- عادل عبد الله، التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، دار الحصاد للنشر والتوزيع سورية، ط 01، 2000، ص16، 17.

2- علي حرب، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، دط، 1995م، ص29، 30.

3- محمد علي الكردي، من الوجودية إلى التفكيكية دراسات في الفكر الفلسفي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 1998م، ص151.

4- المرجع نفسه، ص154.

التي تناقض صياغة الفكر المتصلب، وتستبدله بآخر وهمي ومزيّف" وإذا كان التفكيك سلبا خالصا ونفيا محضا، فهو لا يتحقق مع ذلك إلا بتوافر مجموعة من الشروط، ولعل على رأس هذه الشروط، التنكر للاسم والتسمية...فالاسم تحديد وإحاطة، وإبراز لدعائم عالم يقوم على الثبات والسكون، ولمرتكزات نظام يحكمه التراتب والتدرج، ومن ثمّ كان على فعل التفكيك بواسطة إجراءات الكتابة لما تتسم به من عتمة أو كثافة تكاد ملازمة لماهيتها "التحبيرية" بث البلبلة والفوضى في قلب الخطاب المستتب، أو سابق التنظيم. كذلك يقع على عاتق عملية التفكيك إحداث فرجة في نسيج النص، بحيث تزدوج عملية القراءة، وبحيث تسمح هذه القراءة المزدوجة المنبثقة عن هذه التجربة، بخلخلة النص وكشف الجذور التي يسميها دريدا المركزية الصوتية والتصويرية، والتي تشكل العامل الميتافيزيقي أو الأيديولوجي الكامن لمجمل الخطاب الفلسفي الغربي منذ تأسيسه على يد أفلاطون، وحتى بلوغه أوجه عند هيغل"[1].

لقد بات مفهوم الاختلاف اليوم معلما من معالم الخلخلة والانشطار، ومظهرا من مظاهر رفض الانقياد و القطيعة مع ثقافة الالتزام، وذلك من خلال تبني منطق المساءلة والنقد حتى لما اعتبر مسلما" ولعل أهم ما يميّز هذه الممارسة النظرية، هو تشكيكها في العلاقة الثابتة أو المستقرة التي تقوم بين الدال والمدلول، أي بين الصورة الصوتية وفقا لتعبير سوسير، ومفهوم الشيء أو تصوره، وهي العلاقة التي يحاول دريدا زعزعتها بردّها إلى فضاء الاختلاف وسلبيته الجذرية، ...وليس من شك في أننا هنا أمام محاولة تقوم على النفاذ من فجوات النص ومحاور تمفصله و تقاطعاته، وذلك بعد كشف علاقات القوى التاريخية التي تضفي عليه تماسكه الدلالي الظاهر، وتحدد له دروب التفسيرات الممكنة وغير الممكنة"[2].

وعلى هذا تصبح القراءة الآن ذات منحى ووجه جديدين، لا تشتغل بالثابت والأصل والداخل، إذ لم تعد الآن توجس خيفة من هذه التماثيل، بل صارت تقارعها وتنخر فيها

1- محمد علي الكردي، من الوجودية إلى التفكيك دراسات في الفكر الفلسفي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 1998، ص 156.

2- المرجع نفسه، ص157.

وتفتتها، مسلحة برهان الثغرات والنقد والتناقضات، الأمر الذي يسهّل من كشف الصدوع والتسلّل بطريقة أو بأخرى داخل مدائن النص، لفتح المغلّق فيه والإبقاء على هذه المساحات والهوامش باقية داخل العمل الأدبي، إذ لا وجود ولا حضور ولا هيمنة إلا لعوالم الحفر والتعارض والإبدال والتخطي، وكذا الانتهاك والتعدّي والتجاوز داخل الفكر والواقع على حدّ سواء، وبهذا" تبقى القراءة ممتدة في الزمان والمكان، لا يعتريها ضعف ولا يخالطها وهن، لأنها لا تأنس بالإتباع وتستسلم للسماع، وتقتنع بالمحض الثابت، لكنّها قراءة يحكمها الإبداع، وتوجهها الرغبة في اختراق المجال اللفظي، اختراقا يتيح ضروبا من الفهم والإدراك"[1] إنّه أفق سميك فضاء وكثافة وتفاعلا، "أفق فني بتشظيات المعنى وضبابيته"[2].

من هنا جاء الحديث عن التبعثر كمفهوم يعزز من لغة الحفر والتفجير والتشظي، فهو عين "ما يخرج عن نطاق التفاهم والاتفاق والقانون، هو الخطأ والخارج، هو ما يستعصى إدراكه، هو الشاذ"[3]، وعلى هذا لم يعد الاختلاف مجرد قراءة تقتنع أو تقف عند حدود الأصل والمركز والنواة، بل" حفر خلف النص، ليصل إلى النص الباطني(الخفي والغائب) ذلك الذي يرشّح النص لعطاءات كثيرة"[4]، ولعل هذا النوع من المساءلة والضرب من الحوار والنقد، هو الذي أحقق به كقارئ "إرادتي الحرّة في المعنى والصورة والزمن والوظيفة"[5] وفي هذا السياق" نستشهد بالنقد النيتشي للميتافيزيقا، بنقد مفاهيم الوجود

1- عزيز محمد عدمان، حدود الانفتاح الدلالي في قراءة النص الأدبي، مجلة عالم الفكر، ع3، مج37، مارس2009م، ص 75.

2- علي جعفر العلاق، الدلالة المرئية قراءة في شعرية القصيدة الحديثة، دار الشروق الأردن، ط1، 2002، ص 27.

3- موريس بلانشو، أسئلة الكتابة، تر: نعيمة بن عبد العالي وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2004م، ص 36.

4- محمد عزام، اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب إلى المكبوت، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2008م، ص297.

5- عبد الواسع الحميري، في أفاق الكلام وتكلّم النص، دار الزمان، ط1، 2009م، ص287.

والحقيقة، والتي استعيض منها بمفاهيم التفاعل والتفسير والعلامة، العلامة دون حقيقة حاضرة..."[1]

هذه الحقيقة غير الحاضرة أو الغائبة أو اللاحقيقة، هي التي باتت تمثل اليوم صلب فكرة الاختلاف الذي من حقه أن يجعل " اللعب الحرّ قطعا للحضور، وحضور العنصر هو دائما إشارة دالة وبديلة منقوشة في نظام من الاختلافات، وحركة السلسلة اللّعب الحر هو دائما تفاعل للغياب والحضور"[2].

4. و اقع الخطاب النقدي العربي المعاصر في ضوء نقد المركزية:

لا يقف الخطاب النقدي العربي المعاصر بعيدا عن التحولات الفكرية والأدبية التي باتت تشهدها الساحة النقدية اليوم، بل أضحى نموذجا للانفتاح والتفاعل الإيجابيين، وحقلا كثيفا للتداخل والتعالق الفكري، الذي كان له أثره ونتائجه، لاسيما على صعيد النص والقراءة، ذلك أنّه باتت تظهر وتلوح في الأفق معالم مقاربات جديدة للنص، ومسارات ومسالك أكثر حداثة لفعل القراءة، وتحولات أخرى لصيرورة التأويل ونسج المعاني، وخلق الدلالات، واستحداث تصورات جديدة حول الحقيقة، وصفات الجمال في النص وضوابطه، ناهيك عن الوقوف على التضاريس الجديدة في الفكر البشري، ومناحي أخرى في نقد الذات والوجود والتاريخ والآخر.

لقد أضحى نقد المركزية رهانا يعوّل عليه الخطاب النقدي العربي المعاصر، وينشد تحقيقه بقوة، لما يمكن أن يحدثه من فتوحات جديدة في هذا الخطاب، من شروخ وصدوع وهوامش ونوافذ يمكن أن نطلّ منها على الوجه الآخر لهذا الخطاب، فنستمع ونسترق فيها ومن خلاله صوته الخفي، الذي بات يطالب بالحضور، والذي يتجافى فيه عن مركزية الآخر والعقل، التي لطالما أرهقت هذا الخطاب وحمّلته تبعات الفكر الغربي القديم، الذي يجعل المركز من الثوابت والمقدسات التي لا يجوز انتهاكها، لتكون النتيجة في الخطاب النقدي

1- ك،م،نيوتن، نظرية الأدب في ق20، تر: عيسى علي الكاعوب، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، 1988م، ص159.

2- المرجع نفسه، ص160.

العربي المعاصر، هي تفويت الكثير من جماليات التراث، والاكتفاء منه بلغة الإذعان والاستسلام لهذا الصوت السلطوي الذي كلّه سيادة وقمع.

أمام هذا الحديث الذي حملته رياح التغيير والتجديد ونقد المركزية الغربية، بات الخطاب النقدي العربي المعاصر أكثر ميولا وإعجابا واحتفاء بموجات هذا التحول والتجديد، لا سيما في قضية العلاقة مع التراث العربي، فقد رأى الخطاب النقدي العربي المعاصر أن في هذا التحول والنقد خدمة للتراث والفكر العربي القديم، إذ بات الخطاب النقدي العربي المعاصر أكثر جرأة وتفاعلا في مساءلة هذا الموروث، من خلال منطق التشكيك المفضي إلى تعرية الكثير من الثوابت التي ألزمنا التراث بها وبعدم الدنو أو الاقتراب منها، إذ باتت من قبيل المقدس والمسلم، الذي لا يقبل نقاشا أو مراجعة أو تحديثا، وعلى هذا جاء نقد المركزية ليسقط هذه الأقنعة ويزعزع هذه الثوابت، ويخلخل الأصل والداخل والنواة، ولينهض بذلك المشروع النقدي العربي الجديد، برؤية ومعادلة جديدتين تتجاوز ثقافة الوثوقية والقطعية، وتستبدلها بثقافة التحيين والمساءلة والتعدد والحفر والخلخلة، التي لا تعترف بالمركز وتنأى بعيدا عن كل ميتافيزيقا متحجّرة.

وعلى هذا، انطلق الخطاب النقدي العربي المعاصر في رحلة البحث عن مواطن الاختلال في الفكر، وفي محاولة للتحرر من هذا الحضور، لاهثا وراء الاختلاف مطاردا منطق التفكيك، باعتبارها مسارات وطرائق جديدة يتحقق من خلالها رسم حدود وملامح أكثر حداثة، تحلّق بعيدا عن المركز التقليدي المبتذل الشائع، وذلك من خلال استراتيجية " تنطلق من الهامش نحو المركز، وتجعل المعنى لا يحيل إلى العقل كمصدر وحيد للمعرفة، بل يحيل إلى معنى آخر، والأخر على آخر، بحيث لا نعود نَمثُلُ أما معنى واحد وحقيقة واحدة، بل نمثل أمام اختلاف مطلق"[1].

إنّنا الآن أمام جدلية جديدة في مقاربة النصوص الأدبية، وأمام منطق آخر في مطاردة المعاني جدلية، والذي يرتكز بالدرجة الأولى على عكس ما كان المسار النقدي يسير عليه سابقا، إذ باتت الانطلاقة اليوم من الهامش لا من المركز، وأضحى هذا الأخير محط اهتمام

1- عمر التاور، استراتيجية التفكيك عند جاك دريدا الهدم والبناء مجلة تبيين المغرب، ع3/9، 2014م، ص30.

لكل ناقد يروم التسلل داخل النص، ومن خلال صدوعه وتشققاته، بل بات الهامش هو في الواقع رسما لفضاء لا ينتهي من هذه الشقوق والفجوات، كما تحول الهامش إلى نقطة تهدد المركز، بل تخلخل وجوده، فتزيحه وتجرفه بعيدا، لتحلّ بذلك ثقافة جديدة هي مركزية الهامش عوض مركزية المركز، كما لا مجال لجعل المعنى يحيل إلى العقل كمصدر ومنبع ومنفذ وحيد للمعرفة والحقيقة، بل يحيل إلى معنى آخر، فالدال لا يحيل إلى مدلول، بل إلى دال آخر، بحيث لا نعود نمثل أمام معنى واحد، بل معاني وحقائق يغذّيها الوهم، وتطعّمها لعبة التواري والتملّص والإرجاء، كل هذا يصبح بعيد المنال، إلا بعد جعل الاختلاف هو مدار ورهان كل هذا المد والجزر.

لقد بات هذا التحول مطلبا نقديا وفكريا بشكل عام، ذلك أنّه في الواقع تأسيس لمشروع بات الخطاب النقدي العربي المعاصر في أمس الحاجة إليه، لا سيما أما هذا الزّخم المعرفي الذي يحيط به من كلّ جانب، وهي كثافة فكرية وإيديولوجية قائمة على الدينامية والتجديد، لذا جاء هذا المشروع ليلبي هذه الحاجة، وهي تحقيق معادلة جديدة مبنية على إزاحة المركز كأصل قديم، وتقديم الهامش كأصل جديد، قابع ساكن في الأول ومنافس له، الأمر الذي سيصيب المركز بالعجز، إذ يصبح غير قادر على مواجهة الهامش الذي يمثل اليوم حمولة ثقافية وفكرية يصنعها الاختلاف والاعتراض، والدعوة الملّحة كل حين إلى المساءلة والنقد والتشكيك، فتتوقف إجابات المركز ويتلعثم لسانه، ويتراجع في الأخير فاسحا وتاركا المجال للمخادعة والمخاتلة، ولوهم الحقيقة كي تحلّ محل الحقيقة، وتقد ميتافيزيقا الحضور كوهم وخديعة وخطيئة في حق الفكر والمعرفة بشكل عام.

ولا يتسنى ذلك إلا من خلال" التموضع داخل الظاهرة، وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل، أي أن نقطع شوطا مع الميتافيزيقا، وأن نطرح عليها أسئلة تظهر أمامها من تلقاء نفسها عجزها عن الإجابة، وتفصح عن تناقضها الجواني، إن الميتافيزيقا...ليست شخصا واضحا ولا دائرة محددة المعالم والمحيط، يمكن أن نخرج منها ونوجه لها ضربات من الخارج، ليس هناك من جهة ثابته (خارج) نهائي أو مطلق، إن المسألة مسألة انتقالات

موضعية، ينقل فيها السؤال من طبقة معرفية إلى أخرى، ومن معلم إلى معلم، حتى يتصدع الكل، وهذه العملية هي ما دعوته بالتفكيك"[1].

لقد ضرب الخطاب النقدي المغاربي المعاصر صفحا عن محاذير ومغالطات المركز، الذي لم ينل منه سوى تأزم العلاقة وتعقيدها مع التراث، لاسيما في رحلة قراءته ومساءلته، التي كانت ولازالت تعد بالكثير، هذا الخطاب الذي لا الكلام عنه ينتهي ولا الحديث عنه يتوقف على حدّ تعبير علي حرب، لذا كان لنقد المركزية دوره وفاعليته وأثره في إحداث هذه الطفرة والرؤية الجديدة في التعامل مع الدرس العربي القديم، بنوع من المرونة والتفاعل الإيجابي، و في رحلة رسم لمعالم وملامح وتمظهرات جديدة لهذه العلاقة الواعدة، طالما أن الهامش والخلخلة والاختلاف هي في الواقع ضمان لمسيرة نصية وقرائية كلها استمرارية إرجاء وتشظي.

1جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، ط02، 2000، ص47